

خطبة الجمعة أنشأت جامعة

للدكتور

عبد السلام الهراس

في مستقبل استقلال المغرب كنت قد كتبت مقالة حول الوعظ والارشاد ، لما شاهدته من احوال خطب الجمعة ودروس الوعظ والارشاد ، والطاقت الهائلة والفرص العظيمة التي نضيعها بتركنا هذا الجانب مهملًا سائرًا على منوال غير منتج ولا ذي فعالية وغناء .

وكان المغرب اذ ذاك — ولا يزال — مدعوا للريادة والقيادة من اجل بعث اسلامي اصيل مبرءا من ثوائب ازدواجية الروح والفكر والولاء « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وكم كان يحز في نفسي ان أرى « الموضات » الفكرية كلها المنسجمة منها والمتعارضة تقود المغرب الى أوضاع تشبه تلك التي وصلت اليها اقطار شقيقة ما تزال تعاني منها اليوم ، وكانت هذه الاقطار رائدة في ارتكاب الاغلاط وتأميل « الانحراف » الذي لم يكن وليد صدفة او نتيجة تجربة وانما هو « مخطط » مدروس مهيا قد اعده « الاعداء » التقليديون لهذه الامة من اجل ان تظل تائهة تبحث عن سبل النهضة ووسائل التقدم والسعي للاخذ بأسباب الحضارة وهي في الواقع لا

تزداد الا ضياعا وتيهًا وتمزقا ، ورغم القوارع المبهولة والزلازل الشديدة ، والهزائم المنكرة والمتكررة ، فإن السبيل الواضح الذي ليله كنهاره ، لم تزل تنتكب السير فيه ، وتصد الناس عنها مصرة على ان تقدم على تجارب عدة ، فتبدل النظم وتغير القيادات وتجدد الشعارات وتفعل كل ما « يقترح » عليها مباشرة او غير مباشرة من ارباب النفوذ ! ولكنها مصرة على التيه ، مخلصلة للفراغ ، وان ما انفتحت من جهود واموال لانتاج افكار تقدمها لم يكن في الحقيقة سوى افكار تخلفها مما يعكس مدى السفه الذي أصيبت به هذه الامة التي كان اجدادها خير امة اخرجت للناس .

واليوم اعود للكتابة عن خطبة الجمعة لا لاقتراح هذه المرة شيئا في الموضوع ، فما سبق ان اقترحتة انا وغيرى كاف — لو اخذ كله او بعضه — لانعاش هذا العنصر الحيوي من الدعوة الاسلامية ولتكني اكتب الآن لحدث القارئ الكريم عن مدى قيمة هذه الوسيلة الاسلامية ، عند ما تجد من يحسن استعمالها ، ويقدر وظيفتها ويدرك مقاصد الشرع من فرضيتها . وساعرض فقط ما شاهدته عن كتب لاثرت خطب

واستشهادات ما يجعلها تجرى الديموع ، وتعمق الاحساس الدينى والشعور بالمسؤولية وتدفع المنصت الى العمل والحركة والانفعال .

والحق ايضا ان مسلمى بيروت فيهم كثير من الخير والاستعداد لو كانوا يجدون من يقودهم اليه ، ويخلصون للاهداف التى ينشدونها ، رغم ما يبدو على هويتهم فى المظهر الخارجى من طغيان مآدى جارف .

ولذلك كان كثير من «البيارتة» المسلمين سرعان ما يسارعون الى الخير ويتنافسون فى المعروف عند ما يقتنعون باخلاص القيادة وسلامة نيتها .

كان المسلمون يحسون بأخطار التعليم التنصيرى والاستعمارى الذى يملك مئات المدارس والثانويات، وبعض الجامعات كالجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية ، وحتى الجامعة اللبنانية نفسها . وقد لعبت بعض الجامعات ادوارا خبيثة فى سياسة ما يسمى بالشرق الاوسط ، حيث استطاعت أن «تنهج» أنماطا من أصحاب الشهادات العليا وتهيئهم لتولية الحكم والمسؤولية فى بلادهم ، ولا يزال بعضهم يقوم بنفس المهمات المحددة التى خططها اعداء الاسلام لتمزيق العالم الاسلامى ، وتفتيت كل وحدة داخل الاسرة العربية ، وما أحدث لبنان بمجهولة أسبابها وقصتها ومؤلفوها ومخرجوها وابطال تمثيل هذه المأساة .

وكانت هذه المدارس تقوم بمهمة أخرى وهى اعداد النصارى اعدادا علميا ، وفى مختلف المجالات حتى يسيطروا على مواقع المسؤولية ومراكز السلطة، ويحتلوا المناصب العليا ، وكانت فرحتهم الكبيرة ابان الحكم الفرنسى ، مما اتاح لهم اشرافا شبه كامل على لبنان فى اخطر مراكزه وميادينه .

ولم يكن للمسلمين من المدارس الا النزر اليسير ، ومن المدارس الاولى التى قام المسلمون بتأسيسها « المقاصد الاسلامية » التى افسدت السياسة مقاصدها الاسلامية وسلبتها أهم فعاليتها فلم تحقق اهدافها كاملة وان كانت قد سدت فراغا كبيرا .

ولم يكن للمسلمين جامعة ، وانما كان المتخرجون من الثانوى يتجهون لسوريا أو لمصر .

بعض الخطباء الصادقين فى الوسط الاسلامى الذى ظل يستمع لخطب أخرى قبلها أو معها دون أن يستجيب لدعوة أو يتحمس لرأى ، ولكنه عند ما وجد امامه خليبا يعرف كيف يخاطبه ، ويقدم له من نفسه القدوة الصالحة التى يجدر بالمسلم أن يستمع اليها . ويقدرها حق قدرها ، لم ييخل بشيء فى سبيل الله ، فقدم الجهد والمال وبذل كل ما طلب منه واكثر ، استجابة لداعى الواجب الاسلامى . كان ذلك فى سنة 1953 ، وفى مدينة بيروت ، وفى الجامع الجيدى ، وكان الخطيب شابا مصريا لم يتجاوز الثلاثين من عمره انتدبه الازهر الشريف للتدريس فى ثانوية اسلامية ، فكان استاذ الادب والتفسير ، وكانت دروسه تمتاز بعمق الفكرة واشراق الاسلوب ، وجمال العرض ، وحلاوة الالتقاء ، وكان يتمتع بسمعة طيبة فى المجتمع اللبنانى الاسلامى لخصاله الحميدة من مروءة وعفة وقوة شخصية ، مما اتاح له أن يقوم بأعمال جليلة فى سبيل المحافظة على وحدة المسلمين وقوتهم . ومما أهله ليصبح حكما بينهم فى أخطر النزاعات وعلى مستويات سامية وهو الاستاذ المصرى الوحيد الذى أصر اللبنانيون المسلمون على أن يكون انتدابه للبنان بصفة دائمة لا تخضع لقانون البعثات ، وكانت الجماهير تتجه أفواجا الى بيوت الزعماء السياسيين المسلمين لمطالبتهم بالسفر حالا الى مصر من أجل مد انتداب الاستاذ فهيم أبى عبيدة ، وتجديد بعثته ، فكانت البشرى دائما تزف اليهم بالاستجابة الى مطلبهم هذا من مصر .

ان تعلق المسلمين بهذا الرجل لم يكن مبعضه علمه وثقافته الواسعة ، وانما كان اخلاصه ووضوح مقصده ، وحبه للصالح العام ، مع علو نفس وهمة وبعده عن مواطن الشبهات رغم كثرة المغريات والعروض .

وكان يتطوع كل جمعة تقريبا للخطبة فى مسجد الجيدى أو المجيدية ، فكانت الجمعة فى ذلك المسجد تعنى موسما دينيا عظيما ليستعد له المصلون قبل يوم الجمعة ، كما يهتمون بالخطبة أثناء الاسبوع بعد ذلك .

والحقيقة ان خطبة الشيخ فيهم كانت تجمع من عناصر التأثير موضوعا وعرضا والقاء واشارات

في بداية الستينات تمام هذا المشروع الذي بدأ بكلية الحقوق ، ثم الآداب ثم الاقتصاد والتجارة ، وهو في طريق التكامل الجامعي الشامل رغم ما وضع في طريقه من عراقيل شديدة وسدود منيعة ، ولكن الإرادة الطيبة الصامدة أقوى من كل عرقلة .

يستمع المسلمون كل اسبوع الى مآت الآلاف من الخطب المنبرية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وحتى في أوروبا وأمريكا ، فلو كانت هذه الخطب منظمة وعلى أساس أنها وسيلة ناجعة ذات أهداف ملموسة ومضمونة ومحددة لكان العالم الاسلامي يحقق لنفسه كل اسبوع خطوات الى الامام ، فهلا هب المسؤولون لبعث الحياة في هذه المنابر المترامية ، وجعلها مواقع قيادة وبعث وتحريك وتوجيه ؟

بقيت كلمة لا احب ان اتركها في نفسي وهي ان الخطبة المباركة التي نوهت بها قد استطاعت ان تحرك المسلمين وتنفهم الى تخفيف البناء المادي ، لكن المسلمين اللبنانيين كان يعوزهم شيء هام وهو ما نسميه « بالاطر » اي العنصر البشري العلمي المسلم ، لذلك لم يستطيعوا ان يديروا هذه الجامعة ولا ان يزودوها بالاساتذة الكفاء الذين يحققون الاهداف الاسلامية ، فلم يجدوا بدا من ربطها بجامعة الاسكندرية ، فاصبحت بذلك نسخة من الجامعات المصرية وهكذا لم تكن جامعة اسلامية بالمعنى الدقيق تواجه تحدى الجامعات التنصيرية اليسوعية والبروتستانتية وغيرها ومع ذلك فان اصحاب المشروع قد يستدركون ما فاتهم وقد تهيأت لهم اطر اسلامية عظيمة تبدد مواهبها في أوروبا وأمريكا فما عليها الا ان تعود لبلادها لتسهم في ميدان العلم لبناء هذه الامة التي ينتظر منها العالم ان تعود من جديد لتقوم برسالتها العظيمة في نشر الوية الخير والحب والسلام .

اذ ذاك سارع فريق من المسلمين في بيروت وفي مقدمتهم المرحوم الحاج رشيد صوري رئيس جمعية البر والاحسان الاسلامية الى التفكير في بناء جامعة ، وكان ذلك اثر خطبة جمعة القاها الشيخ فيهم أبو عبيدة والحق فيها على المسلمين ليعملوا على تأسيس جامعة اسلامية تشرف على طلاب المسلمين وتزودهم بالمعارف وتزاحم بهم ، وتدفع بهم الاخطار المحدقة ، وان هم لم يبادروا الى ذلك تأخر ركبهم ، وتبدد شملهم ، واصبح معظمهم في يد غيرهم ، لا حول لهم ولا قوة وكانت الخطبة الاولى من أروع خطب في العالم الاسلامي المعاصر ، حيث شهد المسلمون في نهايتها ذوى اليسار والغيرة منهم يتبارون في التنافس على الخير والمزايدة في البر ، ولا زلت اذكر ان بعضهم التزم باطنان من الحديد ، والآخر باطنان من الاسمنت والآخر بالآلاف من الأجر ، والآخر « بكذا » أيام من الشغل ، وما ان خرج المسلمون من المسجد حتى كانت جامعة بيروت العربية قد ضمنت بداية واستمرارا ، وهكذا توالى خطب الجمعة في الموضوع ، فتوالى التبرعات ، الى ان راينا المشروع ينمو في الارواح والارادات ويكبر على الارض بناء عريضا وطويلا يسع اليوم ثلاثين ألف طالب مسلم ، ان « جامعة بيروت العربية » مشروع لا ينهض بعينه سوى دولة ومع ذلك استطاعت جمعية اسلامية صغيرة لا يتعدى افرادها العشرة بمؤازرة جماعة عباد الرحمن ، وجميعات اخرى ، وبمختلف العناصر الاسلامية ان تؤسس هذه الجامعة العتيدة التي قصد بها ان يكون الملاذ العلمي للمسلمين في لبنان بعد ان حرموا من التعليم عشرات السنين ، في حين كانت ابواب المدارس والمعاهد مفتوحة في وجوه طوائف اخرى لا سيما النصراني منها ، ناهيك التشجيع المادي المكثف من جميع الدول النصرانية ، وشهدت بيروت